مطالعات في الأدب والحياة

بقلم : محمد حسين اسماعيل

سيدي الأستاذ

قرأت مشكلة القلب الحائر التي عرضتها على قراء البيان وهي مأساة رجل متزوج وأب لطفلين ولكنه احب امرأة من بنات الهوى فلما انقذها من ظلمات الاثم والفجور خيل له ان ماضيها الاسود قد مات في غمار الحياة ، وانتهت سلسلة آلامها لتبدأ سلسلة آلامه ، فهو حائر بين زوجته وطفليه من جهة ، وبين هذه التي استحوذت على قلبه وعقله من جهة ثانية ، وحار لا يدري ماذا يصنع فجاء اليك يسألك الهداية ، وتخلصته من نصيحته فعرضت مشكلته على القراء تطلب لها حلا يرضي العقل والقلب والضمير .

ورأيت ان اكتب لك قصتي لعلك تجد بين ثناياها الحل الذي يرضى صاحبك ، فقد مرت علي نفس الآلام التي مرت عليه وتعرضت لما تعرض له ، وان كان الفرق بيني وبينه هو اني وجدت الحل ولا يزال هو يتردد ويبحث .

... ان بعض النفوس جبلت على الخبث والشر ، وهيهات للنفس الرقيقة الحساسة ان تستطيع انقاذها ، أسمعت قصة ابي الجعل الذي يعيش في القاذورات ويجد فيها غذاءه وحياته فاذا اخرج منها مات ؟

وتبدأ قصتي كما تبدأ قصة كل شاب اشرف على سن المراهقة ، فقد وجدت نفسي في يوم من الايام ابحث عن معنى غامض يجول في خاطري ولا استطيع التعبير عنه ، ووجدت الرغبة العاصفة المدمرة تجتاح كياني باحثة عن النصف المفقود ، وكنت لا اكاد اقرأ مجلة تبحث عن مشاكل الجنس ، او اشاهد فلما غراميا في السينما ، او استمع لحديث بين الشبان عن مغامراتهم حتى احس بدمي يفور واعصابي تثور

وتجشمت رغبتي فلم استطع منها فكاكا ، واقترح احد الاصدقاء ان نزور بيتا من بيوت السوء حيث نجد المتعة واللذة ، وصادف الاقتراح هوى في نفسي ، وذهبت — وياليتني لم اذهب — فقد كانت تلك الزيارة فاتحة سوء في حياتي .

وهناك شاهدت الافعوان التي سيطرت على قلبي وعقلي زمنا طويلا . ولما دخلنا الدار كانت الساعة تشير الى العاشرة ، فرأينا سربا من النساء ، وكانت اضواء الكهرباء تلقي بالنور الفاتن على الاجساد المعروضة للايجار والملابس الزاهية البراقة تخدع العين بالجمال الزائف ، وروائح العطر التي يفوح بها المكان تشل الذهن عن التفكير ، والضحكات التي تتجاوب من هنا وهناك تبعد الحشمة والوقار عن المتزمت وجلسنا ننتظر الموعودة فقد كانت على موعد سابق .

فلنفترق !

وقد تيأسينا . . .

قد تفوزين ، ذات يوم ، على الماضي وتنسين ذلك المسكينا

إنني ازمع الرحيل ! »

فندت همسه ، كالصريخ ، ملأى شجونا

« كيف تقوى ! ... وهل تعود ؟ »

فتمتمت : « وداعاً ! وهكذا التاعسونا ! »

وتلقيتها بصدري ، وجففت لها دمعها الحريق الهتونا :

« لنكن في العذاب أقوى من الذكرى وأسمى من الخطايا حنينا

واذا آلمتك نفسك.. يا ليلى . . فقولي لها : عشقنا ظنونا !

قد يعود الهوى المضاع ولكن من يعيد القلوب للميتينا؟ »

وتشددت وانطلقت بخطو موحش يقرع السكون الحزينا

ويد لا ترد تنبش قبراً في ضلوعي يضم حبا دفينا !

البصرة — محمود البريكان

لقد رأيت اسواق الرقيق حيث تمتهن كرامة الانسان وتباع العزة بالمال ، وكان كل شيء اراه جديداً عليّ ، وكنت خجولا حيياً ، فلم يشترك اساني في الحديث الا قليلا ، على ان سمعي وبصري شاركا الناس متعة السمع والنظر وجاءت أخيراً ، يسبقها العطر الذي تتعطر به وكأنه كان متمماً لفتنتها ، وكانت ترتدي ثوباً احمر اللون ، ينحسر عن الكتفين ليكشف عن مفاتن الصدر ، ولا اقول انها كانت في غاية الجمال ، ولكني اعتقد انها شديدة الفتنة ، يخيل لكل انسان انها تخصه بحديثها ، وتعنيه باشارتها ، ولكنها لم تكن تعنى احداً او تهتم بأحد

واحببتها يا سيدي ، ولا اريد ان اطيل عليك ، فقد تعلمت كيف استحوذ على المال من امي لا نفقه عليها وتعودت ان اقضي اوقات فراغي ادرس على يديها فنون الحب والغرام وكنت اقول لنفسي كما يقول صاحبك الآن « انها واحدة من كثيرات ينتظرن المنقذ ، واذا انتشلها انسان من هذه الهوة فانها ستعود طاهرة عفيفة » ، وجازت هذه الخدعة المنطقية علي . فقررت ان اكون ذلك المنقذ . وفاتحتها بذلك فابدت استحسانها للفكرة واعجابها بها ورغبتها في الخلاص من الوسط الذي تعيش فيه .

وبقيت افكر في كيفية تنفيذ ما اعتزمت عليه ، ورأتني في يوم من الأيام مهموماً فعجبت لحالي وسألتني عن سبب الهم الذي اعانيه ، وعندما اجبتها بانني افكر في ايجاد طريقة تحازمه اواجه بها اهلي ، واعلن لهم عزمي على اخراجها من الجحيم الذي تعانيه ، ورغبتي في الزواج منها ، أبدت تعجبها من كل هذا الهم الذي اعانيه ، وقالت ان الامر لا يحتاج الى كل هذا القلق ، وان المهم في الامر هو ان احصل مبلغاً من المال لتدفع عنها الديون ، ثم نستاجر داراً نعيش فيها اياماً ، ثم ندبر طريقة للاتصال بينها وبين اهلي ، واقدمها لهم على انها زوجة صديق مات زوجها منذ زمن ، ثم اخطبها لنفسي بعد حين دون ان اشير الى الماضي او انبش الذكريات.

واعجبتني الفكرة ، فبدأت بالتنفيذ .

لا ادري كيف جمعت اللازم من المال ، فقد كانت الطرق التي استعملتها للوصول عليه كثيرة ، خدعت اهلي بالوان من الاكاذيب حتى اخذت بعضه ، وخدعت اصدقائي بضروب من الضرورات حتى جمعت بعضه ، وخدعت نفسي فحرمتها كل ملذ مما اشتهيه حتى اكملته .

ودفعت الدين ، واستاجرت الدار ، واوجدت فتاة تقوم على خدمتها ومراقبتها ، وكنت اقضي عندها اكثر النهار لاهيء لها اسباب الحياة الجديدة التي ستنتقل اليها ، واعلمها بما تقتضيه هذه الحياة من آداب ، واحاول جاهداً ان ارفع من ذهنها صور الماضي البغيض وما كانت تتحدث به من تعابير نابية تعلمتها من ذلك الوسط ومر شهر بأكمله وكانت قد الفت الحياة الجديدة واحبتها ، ورأيت كيف ان جهادي لم يضع عبثاً ، فلم تكن تخرج من الدار ولم يزرها احد ، وكانت الخادم تنقل الي كل شيء .

. . . حتى جاء اليوم الذي رفع فيه الغشاء عن بصري الأعشى . فقد ذهبت الى الدار قبل الموعد فلم اجدها ولم اجد الخادم ، وطار عقلي فذهبت ابحث في كل مكان ، وافتش في كل مظنة ، حتى وجدتها في احدى دور السينما والى جانبها واحد من المعارف القدماء ، وجلست خلفها اتبعها النظر وان كنت لا اسمع الحديث ، ومن يدري فربما كانت تحدث المغفل الجديد عن المغفل القديم .

وخرجت قبل انتهاء العرض ، وانتظرتها في الدار فلما وجدتني عند عودتها وسألتها اين كانت ، أقسمت باغلظ الايمان انها كانت تتنزه في الشارع ، وعندما فاجأتها بخبر السينما لم تتراجع بل قالت انها ذهبت الى السينما فعلا وهناك شاهدت هذا الصديق القديم واشتركا في الحديث ليسري عنها هموم الوحدة .

وطردتها وطردت الخادم ، فقد كنت على غير استعداد لاستئجار انسان يسري عنها الهموم اثناء غيابي .

* ● *

ومضى على ذلك عدد من السنين ؛ انطويت فيها على نفسي وازددت في خلالها فهماً للحياة ودرساً لهذا النوع من الجنس البشري ، وكنت قد عينت موظفاً لدى احدى الشركات ،

وفي خلال تلك المدة لم اسمع اي نبأ عن تلك الشيطانة ، ولا اعلم اين استقر بها المطاف.

حتى جاء الربيع من سنة ١٩٤٥ ورايت نفسي مرهقاً بسبب كثرة متاعب العمل ، فأخذت اجازة قصيرة وعزمت ان اقضيها ببغداد ، وان اعوض على نفسي هذا الحرمان الذي غمرتها به طيلة تلك المدة .

هل اراد القدر ان يسخر مني مرة ثانية ؟ لا ادري ، ولكنني في بغداد وفي ليلة من الليالي دخلت احدى المسارح المعروفة الكبيرة ورأيتها هناك ، كانت هي الأخرى قد تغيرت ، ولكن الفتون الذي تغرى به كان لا يزال كما اعهد بل ربما خيل الي انها اكثر فتنة من السابق ، وعندما دخلت الصالة كانت على خشبة المسرح ترقص وتغني ، وقد ارتدت ثوباً ابيض اللون ، واحيطت بهالة من النور الاحمر الصارخ وبين حين وآخر كانت ترفع اطراف الثوب بيديها لتظهر للجالس جمال السيقان ، فتزيد الجمهور المعربد الذي اغرته الالوان واستبدت به الشهوة العارمة جموحاً وصخباً وضجيجاً ، وتبحث من بينهم عن المستأجر الغني .

وانتهى دورها في الرقص ، ورأيتها تختلي في احدى المقصورات مع شاب ، وشاهدت الخادم ينقل اليها ما يريدان فاحسست بالغيرة تأخذ عليّ مجال تفكيري ، فكانني كنت لا ازال اعتقد بانني صاحب الحق الأوحد في مصاحبتها ومجالستها ، وقررت ان اناديها واحادثها على الاقل لتراني والتذ برؤية الثعبان القديم وهو يتمرغ في الاوحال ومن يدري ربما قارنت بين ما هي عليه الآن وبين ما كان يمكن ان يكون .

وناديت الخادم وطلبت منه ان يهيء لي اسباب الاجتماع بها ، فغاب لحظة ثم عاد ليخبرني بانها ستقدم على الاثر .

وجاءت يا سيدي ، وعندما عرفتني رحبت بي ، ولم تظهر عليها علامات الاستغراب ، فكانها كانت تنتظر هذه اللحظة ولم تشر الى الماضي بشيء

لا استطيع ان اصف لك الشعور الذي كان يتجاذبني في تلك اللحظة ، ولكنك تستطيع ان تتصور وان تجزم بان عدة تيارات كانت تتقاذفني ، فقد كانت لا تزال هناك بقية من الحب القديم ، ورغبة ظاهرة في التشفي والأنتقام من امرأة عبثت بي زمناً طويلا ، ورغبت للأستجابة الى نزوات الشباب .

وجاء دورها للرقص فرجتني بالحاح ان انتظر عودتها ، وذهبت وسرعان ما عادت ، ورجتني مرافقتها الى البيت ، لنتحدث بحرية ولنستعيد شيئاً من ذكريات عزيزة علينا .

لم استطع رفض الدعوة ، وفي الدار انحلت عقدة لسانها فدافعت عن نفسها ، وطلبت مني ان اصفح وان اعود ، وقالت ان الندم على مافات يأكل روحها كما تأكل النار الحطب اليابس ، وزعمت بانها سترافقني وتتبعني كما يتبع الكلب الذليل صاحبه ، ان كانت لا تزال هنالك بقية من الحب لها في قلبي .

لا اريد ان اطيل عليك ، فقد يعتريك الفتور من حديثي ولكن لي بعض العذر في الأسهاب ، فانا اتحدث عن مأساة قلب احب كثيراً وتعذب كثيراً ، واريد ان أسدي النصح لكل انسان يريد ان يسير على الشوك الذي سرت عليه من قبل ، ولا تزال منه على يدي وقدمي آثار الدماء والجروح .

قلبت الامر على وجوهه ، وخدعني عقلي حين صور لي ان التوبة لا شك صادقة ، وان الندم حقيقي ، وان الواجب يدعوني لمد يد المساعدة والانقاذ ، وبين خلف هذا كله كان حبي لا تزال منه بقية تحت الرماد .

وطالت اقامتي ببغداد ، واصبحت من زبائن الملهى ، أفد عليه في اول الليلة لأخرج في أخرياته ، وعرفني كل الخدم فقد كانت زياراتي متتابعة متلاحقة ، وكنا في كل ليلة نتحدث عن قرب حلول يوم الخلاص فقد كان عقدها مع صاحب الملهى على وشك الانتهاء ، وكنا ننتظر اليوم الموعود .

وحان ذلك اليوم أخيراً بعد ان انتهى المال الذي كنت املكه ، فطلبت مني ان انتظرها في الفندق ريثما تحزم امتعتها ثم تأتي الي .

وانتظرتها يا صاحبي منذ ذلك اليوم حتى الان ولكنها لم تعد ، وفي تلك اللحظات الحرجة من الانتظار الطويل المر